آثار الملوك والسلاطين المصريين
بمدينتي القدس والخليل

للأستاذ أحمد رمزي بك

روى عن أنس بن مالك أنه قال :
« إن الجنة لتحن شوقاً إلى بيت المقدس ، وبيت المقدس من جنة الفردوس »

مقدمة :

الملوك مصر وسلاطينها اليد الطولى فى إنشاء المبانى العالية بمدينة القدس ، إذ لهم المدارس والمساجد وبيوت العلم والرباطات والحصون التى بنوها وأنفقوا عليها من أموالهم وحبسوا على خدمتها الأوقاف ورصدوا لوجوه الخير الأموال والضياع والعقار مما لا يصدقه الجيل الحالى .

ذلك لما حباهم المولى تعالى من بسطة فى الملك والعظمة ، ولما رزقهم من نصر يتبع نصراً ، ولما اشتهروا به من أنهم خدام الحرمين الشريفين بمكة والمدينة ، وسدنة الحرمين الشريفين بالقدس والخليل . والمتتبع لهذه الحقبة من الزمن يقف حائراً أمام عظمة تلك العهود وأمام عظمة هؤلاء الملوك ، وتأخذه الحيرة لماذا أخفى الناس تلك الأيادى البيضاء ؟ وما الحكمة فى تناسى ماض لنا هو جزء منا لا أقول يكمل شخصيتنا ، بل أذهب إلى أكثر من ذلك فأقول هو أكبر مظهر لمصر الإسلامية العربية وأثرها فى تاريخ العالم .

عود الى الماضى :

كان ذلك فى نهاية عام ١٩٣٥ ، هو أول عهدى بفلسطين ، حين دعيت إلى العشاء بمنزل المندوب السامى البريطانى ، الجنرال السير آرثر وو كوب ، فجاء مكانى بجوار المستر ريتشموند مدير مصلحة الآثار ، وتناول برفق عدة مسائل تمت بصلة إلى التاريخ والآثار ، وعرض لهبة روكفلر التى رفضتها مصر ، فقبلتها فلسطين ، ورأى فى هدوءاً واستماعاً ورغبة فى الاستزادة من علمه ، فدعانى لزيارته فى متحفه ، وكنت مأخوذاً بالتعرف إلى الآثار المسيحية ، وقد وضع النائب البطريركى للروم الأرثوذكس برنامجاً لى ، فرأيت أن أحدثه فى ذلك وأن أستعرض معه بعض ما لديه من التحف مما يمت إلى العصور المصرية القديمة . وهنا طفق يحدثنى بطلاقة عن دهشته من الثروة الإسلامية التى أنشأها ملوك مصر فى أنحاء فلسطين ، وما خلفوه فيها . وكنت أنصت لحديثه وهو يقول : إن مصير هذه الآثار إلى الزوال إذا لم تتداركها عناية حكومة إسلامية قوية مثل مصر . وإنى لدهش من موقفكم ، تقيمون الدنيا لاكتشاف حجر قديم فرعونى ، وتنسون ماضيكم القريب . لكم المدارس والمساجد والقباب مما يشهد لمركزكم وأمرائكم بحسن الذوق وعظمة النفس وعلو الهمة فى تذوق الفن ، وتتركون كل هذا وكأن الأمر لا يعنيكم ؟

وكنت أجهل الكثير مما يقول ولا أعرف من آثارنا سوى مدرسة قايتباى ، فأخذت فى أشياع نفسى المتطلعة إلى الاستزادة من المعرفة ، وقلت إذا نظر الناس إلى الماضى نظرة تقديس وإلهام ، فلم لا أنظر إليه نظرة الباحث المتعلم ؟

إن الثمن الذى سأدفعه قد يكون غالباً ، إذ أحدث الناس من قوى بما لم تسمعه آذانهم : وقد يتخذ الذين لا يؤمنون بشىء أقوالى هزواً لهم ، لأنى أحدثهم بما لم يألفوا ، ولأنى أضع للناس فيما جديدة لبعض الأشياء التى لم يؤمنوا بها ولن يصدقوا بعظمتها

وكان أهم ما لدى أن أومن أولا بعظمة ماضينا الإسلامى وأن أعيش فيه ، وقد كان ولا يزال مهما غلا الثمن ومهما كانت التضحية فإنه من أسعد الأوقات أن أشيد بهذا الماضى ، وأن انتهز الفرص للكتابة فيه . وليس أسعد من أن يسمع العالم انتصار جنود العروبة على عصابات الصهيونيون وإخراجهم من داخل مدينة القدس القديمة ، فإن هذا النصر جعلنى أحن إلى القدس ، وهى مدينة من أحب مدن العالم إلى قلبى ، ولذلك يلذ لى أن أكتب شيئاً عنها فى هذه الأيام التاريخية الخالدة التى نحياها : أكتب للحقيقة والتاريخ ، وأعيد قيم الأشياء كما كانت ؛ فأرجو ألا يحمل كلامى على غير ظاهره ، أو أن يؤخذ بأنه يرمى إلى أهداف سياسية . لقد عاشت مصر والشام سوياً أكثر من ثمانية قرون ، وعلى صعيد هذه الأرض كتب أسلافنا بدمائهم قصص الملاحم

الكبرى وذاقوا طعم النصر ، كما أنشأوا أعظم ما يمكن تصوره من المبانى ، تقرباً إلى الله ولخدمة هـذا الدين الحنيف ، وكان عامل الخير وحب الناس طابعهم ، وكانت تسوقهم عاطفة خالصة نحو هذا ، لذلك نجحوا حيث أخفق الغير : فإذا كتبت أشير إلى هذا الماضى العظيم فإنما أدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة

سلسلة من أعمال التعمير والإنشاء :

كان ولا يزال للمسجد الأقصى ولمسجد الخليل إبراهيم المقام الأسمى فى نفوس المسلمين . ولذلك اعتنى بهما ملوك مصر من عهد الملك الناصر صلاح الدين والدنيا يوسف بن أيوب الذى أتم الله فتح القدس على يديه ؛ فإنه اتخذ سنة عمل الخير والعمارة ، واتبع سننه من جاء بعده من ملوك بنى أيوب .

وفى عهد الدولة التركية من الأمراء البحرية بعد أن اتسعت الفتوحات وتوالت الانتصارات تردد اسم الملك الظاهر بيبرس كأعظم القواد العالميين وشبه بإسكندر الزمان ، وكان من أكبر البناة والمنشئين أفرد له الأستاذ كريسويل العالم المشهور كتابا عن آثاره بمصر . أما فى فلسطين فقد ذكر صاحب الأنس الجليل — قاضى القضاة أبو اليمن مجير الدين الحنبلى رحمه الله — أنه اعتنى بعمارة المسجد الأقصى وجدد فصوص الصخرة الشريفة التى على الرخام ، وعمر الخان الكائن بظاهر القدس الشريف من جهة الغرب إلى الشمال المعروف بخان الظاهر ، ونقل إليه باب قصر الخلفاء الفاطميين ، ووقف عليه نصف قرية لفتا وغيرها من القرى .

ولقد كانت أكثر قرى دمشق وأراضى البقاع داخلة فى أوقاف الظاهر الذى لم يترك باباً لفعل الخير إلا طرقه وحبس الضياع على أئمة المسجد الأقصى ، وعلى تفرقة الخبز وإصلاح حال النازلين والآتين للزيارة من مختلف الجهات .

وفى أيام الملك المنصور قلاوون تحت عمارة سقف المسجد الأقصى من جهة القبلة مما يلى الغرب ، وتم إنشاء الرباط المنصورى المشهور بباب الناظر ، وهو رباط كان فى منتهى الحسن والبناء المحكم ، هذا غير الإصلاحات التى أتمها المنصور بالحرم الخليلى وغير الرباط والبيمارستان اللذين أنشأهما هناك .

أما ابنه الملك الأشرف المدفون على مقربة من مقام السيدة نفيسة فقد كان من أعظم الملوك حتى إنه على يديه أتم الله فتح البلاد الساحلية وإنهاء الحروب الصليبية ، وفى عهده تم عمل فصوص الصخرة الشريفة التى بدأت منذ أيام الملك الظاهر ، وجدد عمارة السور الشرقى المطل على مقبرة باب الرحمة .

وفى أيام الملك المنصور لاجين جددت عمارة محراب داود الذى بالسور القبلى عند مهد عيسى عليه السلام بالمسجد الأقصى .

ثم جاء العهد الناصرى ، أى حكم الناصر محمد بن قلاوون الأخير الذى استمر حتى وفاته ، وكان وزيره بالشام الأمير الكبير تنكز وهو الذى قيل فى محاسنه[1] :

ألا هل الليالات تقضت على الحمى ... تعود بوعد للسرور منجز
ليال إذا رام المبالغ وصفها ... لشبهها حسناً بأيام تنكز

وهو الذى له المنشئات العظيمة بمصر ودمشق والقدس وبيروت ، وله الأيادى البيضاء حتى مدينة ملاطية فى الشمال حيث أراضى الجمهورية التركية . ففى عهد ولايته عمر السور القبلى بالقدس ورخم صدر المسجد الأقصى ومسجد سيدنا الخليل إبراهيم ، وتم فتح شباكين بالمسجد الأقصى ، وجدد تذهيب القبتين قبة الصخرة وقبة المسجد الأقصى . ويقول صاحب الأنس الجليل : ومن عجب أن تذهيب قبة الصخرة كان قبل العشرين والسبعمائة ، وقد مضى عليه إلى عصرنا هذا أكثر من مائة وثمانين سنة وهو غاية الحسن والنورانية ، ومن رآه قضى أن الصانع قد فرغ منه الآن .

ويطول بنا البحث إذا ذكرنا عمائر تنكز كلها فى القدس فهى كثيرة متنوعة فيها بناء الأبواب والقنوات وأهمها إيصال المياه من بركة السلطان بظاهر القدس إلى المدينة وهو عمل هندسى عظيم ، هذا غير أعمال الترميم فى الأسوار والقلاع والحصون والأبراج .

وقد نقشت كل هذه الأعمال على الرخام والحجارة وعليها تاريخ عمارتها . لقد كان عصراً فذاً لا يعادله فى المعمار عصر من العصور .

---

(١) من قصيدة لصلاح الدين الصفدى لما تولى الأمير الطنبغا الصالحى نيابة الشام

ولما ولى السلطان بركوق العرش أراد أن يسير على غرار من تقدمه من ملوك بيت قلاوون فأخذ فى عمارة بركة السلطان وأنشأ دكة المؤذنين تحت قبة الصخرة تجاه المحراب للمبلغين ، ووقف الضياع التى كان يملكها بناحية نابلس على سماط سيدنا الخليل وشرط ألا يصرف ريعها إلا على السماط الكريم : وأخذ بسنة الملك الظاهر بيبرس فكتب نص الوقفية على باب مسجد الخليل إبراهيم كما كتب الظاهر ومن جاء بعده نصوص الأوقاف على أبواب المساجد فلم يغن ذلك شيئاً بل نزعت الأملاك المرصودة لعمل الخير وتداولتها الأيدى ، ولم تحمها القوانين الوضعية كأملاك مرصدة للمنفعة العامة فلا يسمح تملكها أو وضع اليد عليها ولله فى خلقه شئون .

مؤلفات العصور الماضية :

ذكر صاحب مسالك الأبصار ، أن الصاحب تاج الدين أبو الفضائل أحمد بن أمين الملك ، ألف كتاباً سماه « سلسلة المسجد فى صفة الصخرة والمسجد » .

ولا أدرى هل أبقى الدهر على هذا المؤلف أم ذهب مع الزمن . والذى يظهر مما أورده صاحب مسالك الأبصار نقلا عنه أن المؤلف لم يترك شاردة من غير أن يأتى بها . وإنى لدهش من موقفنا إزاء ماضينا ؛ فهذا يكتب عن المسجد الأقصى فى حوالى سنة ٧٤٣ هـ ، وهذا يقصر عنه الكثيرون ، ونعيش نحن فى القرن العشرين وقد ملأ أنصاف الرجال الدنيا بدعايتهم عن أنفسهم ، ولا نجد بين أيدينا كتابا يعرفنا بالمسجد الأقصى . فلنسر معه قليلا : نجد فى كلامه عن قبة الملك المعظم (ويقصد بها جزءاً من المدرسة المعظمية) أنه يقرر أن دروس النحو كانت تقام بها ، وأن عدد طلبتها كان خمسة وعشرين نفراً من الحنفية ؛ وهى من عمل ملوك بنى أيوب العظام . وفى كلامه وصف دقيق للرباط المنصورى والأبواب والشبابيك التى بالحرم . ثم انظر إليه حيث يقول :

« ولقد مضى على فى مجاورة هذا الحرم الشريف الفصول الأربعة ، فرأيت له فى كل فصل محاسن فى غيره لم تجمع ، وهو أنه من مبدأ فصل الربيع تبدو فيه من الأزاهر المختلفة الألوان ما يستوقف بحسنه لب الذكى الأروع ، وكل أحد ممن له معرفة بالأعشاب يأتى إليه ويأخذ من تلك الأزاهر ما علم منفعته ومضرته » .

ومن حديثه يتبين أن هذا الحرم الشريف والقبة والصخرة ، لم تعدم اهتمام أهل الخير من مختلف الناس ، فهذا الأمير علم الدين سنجر الجاولى ينشىء مدرسة باسمه ، وهذا عالم من العلماء أو تاجر عظيم يتبرع من ماله ، وينشىء بئراً أو سبيلا أو باباً ، أو يهدى مصحفاً أو قنديلا .

ومن قبيل ذلك ما أورده صاحب الأنس الجليل : من أن سلاطين بنى عثمان وغيرهم من ملوك المسلمين ، شاركوا سلاطين مصر قبل الفتح العثمانى فى الاهتمام بالمسجد الأقصى : فقد حصل السلطان مراد بن محمد بن بايزيد على ترخيص ملوك مصر بإقامة قراء يقرأون القرآن فى مصحف مهدى منه إلى الصخرة .

وكان بنو قرمان من ملوك التركمان بأرض الروم فحصل فهم السلطان إبراهيم على إذن بالقراءة فى الصخرة .

هدايا الملوك :

ولو تتبعنا هذه الهدايا لاتسع بنا البحث ولذا نكتفى بما جاء من حسنات الملك الأشرف إينال ملك مصر الذى بعث بالمصحف الكبير الذى وضعه بالمسجد الأقصى تجاه الشباك المطل على عين سلوان ، وأوقف له قارئاً ورتب له مقداره ألف ومائتا أردب ترسل سنوياً قيمتها أربعة آلاف دينار وثمانية دنانير .

ثم توالت الخيرات والهدايا فى أيام السلطان أبى سعيد خشقدم المؤيدى إلى أيام الملك الأشرف قايتباى وفى عهده كان ناظر الحرمين الشريفين الأمير ناصر الدين محمد بن النشاشيبى جد الأستاذ الكبير إسعاف النشاشيبى رحمه الله .

وجاء السلطان إلى القدس مرتين وأقام بها وأنشأ وعمر مما يجمل لرحلتيه إلى الديار الشامية أهمية وروعة تشجعانى على أفراد كلمة خاصة بهما .

أحمد رمزى